الفصل الثانى

المنهج فى تفسير الأحلام

تحليل حلم على سبيل المثال

إن العنوان الذى عَلَّيتُ به هذا الكتاب يبين أى تقليد سلفى فى تصور الحلم أنزع إلى الانتساب إليه . فالغرض الذى أضعه نصب عينى هو أن أبين أن الأحلام تقبل التفسير ، ولقد أجيء فى سياق ذلك بما يعين على حل المسائل المعالجة فى الفصل السابق ، ولكن ذلك لن يكون إلا فضلا يعرض فى خلال المضى إلى هدفى الخاص . وأنا إذ أزعم أن الأحلام تقبل التفسير أرانى دفعة واحدة فى موقف يخالف النظرية السائدة عن الأحلام ، بل يخالف فى الحقيقة نظريات الحلم جميعاً ، فيما خلا نظرية شرنر وحدها . فأن « تفسر » حلماً معناه أن تحدد له « معنى ما » ، أى أن تستبدل به شيئاً آخر ينتظم فى سلك أفعالنا النفسية كحلقة لها من القيمة والشأن مثل ما لغيرها . ولكن النظريات العلمية ، كما رأيناها ، لا تترك مجالا للحديث عن أية مشكلة تتصل بتفسير الحلم ، لأن الحلم بحسبها ليس فعلا نفسياً على الإطلاق ، بل عملية جسمية يُنتبه إلى وقوعها لعلامات تبلغ الجهاز النفسى . وأما رأى سواد الناس من جميع العصور فكان مختلفاً : فإنهم قد أعملوا حقهم المقرر فى أن يغفلوا السلامة المنطقية ، فسلموا من جهة بأن الأحلام غير معقولة ، باطلة ، دون أن يجمعوا أنفسهم مع ذلك على إعلان خلوها من كل مغزى . فهم يبدون كأن شعوراً مبهماً يقودهم إلى أن يقدروا أن لكل حلم مغزاه وإن خفى هذا المغزى ، وأن الحلم قد جعل ليحل محل عملية فكرية أخرى ، وليس علينا إلا أن نرفع هذا البديل على النحو الصحيح لكى نصل إلى ذاك المعنى الخفى .

ولهذا جهد عامة الناس منذ أقدم العصور فى « تفسير » الأحلام . وهم قد اتبعوا فى ذلك منهجين يختلفان اختلافاً جوهرياً . فأما أولهما فينظر إلى محتوى الحلم فى مجموعه ويسعى إلى أن يستبدل به محتوى آخر معقولا يماثل الأول من بعض الوجوه . ذلك هو التفسير الرمزى للأحلام ، وهو منهج لا يلبث أن يتضح بالضرورة عجزه حين يواجه أحلاماً تتسم

بالتشوّش فوق لا معقوليتها . وقد يكون فى التفسير الذى تذكره التوراة عن يوسف لحلم فرعون ، مثال على ذلك المنهج : فأن يرى فرعون سبع بقرات سمان تأكلها سبع عجاف تأتى من بعدها ، ذلك كان بديلا رمزياً لنبوءة تنبىء بسبع سنين من المجاعة فى أرض مصر تأكل فائض السنوات السبع وافرة الغلة . وغالبية الأحلام المصطنعة التى يبتدعها خيال الكتاب إنما يراد بها إلى مثل هذا التفسير الرمزى ، فهى تخلع على فكرة الكاتب قناعاً يتسق وما نعلم من خبرتنا أنه سمات الحلم[١] . واعتقاد الناس أن الحلم يشغل بالغيب أولا ويكشف عن وجهه — وهو أثر من الدلالة التنبؤية التى كانت تنسب إلى الحلم يوماً ما — هو الذى يدعو بعد ذلك إلى الانتقال بمغزى الحلم المكتشف بالتفسير الرمزى إلى الزمان المستقبل ، بإدخال « سوف » عليه .

وأما السؤال : كيف يجد المرء طريقه إلى مثل هذا التفسير الرمزى ؟ فذلك بالطبع أمر لا سبيل إلى تبيانه والإرشاد له ، والنجاح فيه يظل مرهوناً بالتخمين الحاذق والحدس المباشر ومن ثم أمكن أن يعلى تفسير الأحلام بالرموز إلى مرتبة النشاط الفنى الذى يتطلب موهبة خاصة[٢] . وأما المنهج الشعبى الآخر فى تفسير الحلم ، فبعيد كل البعد عن مثل هذا الادعاء . وفى وسعنا أن نسميه « منهج الشفرة » ؛ لأنه يعالج الحلم كما لو كان ضرباً من كتابة سرية تمكن ترجمة كل علامة من علاماتها إلى علامة أخرى معروفة المعنى وفق مفتاح ثابت : مثال ذلك أن أحلم بخطاب ثم بجنازة ، إلخ . ، فأستشير كتاب الأحلا فأجد « الخطاب » يترجم إلى « نكد » و « الجنازة » إلى « خطبة » ، ويبقى على بعد ذلك أن أنشىء من هذه المقومات التى قمت بفك مغلقها على هذا النحو جملة مفيدة أنقلها من جديد إلى الزمان المستقبل . وفى كتاب أرتميدوروس الأفسوسى عن تفسير الأحلام تعديل حرى بالاهتمام يصحح بعض التصحيح ما يتسم به منهج الشفرة هذا من طابع النقل الآلى

---

(١) لقد عثرت بالصدفة فى رواية « جراديفا » للكاتب ف . ينزن على أحلام متعددة خلقها المؤلف خلقا ، ولكنها كانت مع ذلك صحيحة كل الصحة فى بنائها ، وأمكن تفسيرها كما لو كانت صدرت عن أشخاص حقيقيين ولم تكن من بدع الخيال . وقد ذكر لى المؤلف رداً على سؤال من جانبى أنه لم يكن يعلم شيئاً عن نظريتى فى الحلم . ولقد اتخذت من هذا التطابق بين مباحثى وخلق الكاتب شاهدا على صحة تحليلى للأحلام . (أنظر فرويد ١٩٠٧ أ) .

(٢) يقول أرسطو فى هذا الصدد : إن أحسن مفسرى الحلم هم أقدرهم على إدراك أوجه التماثل ، وذلك لأن صور الحلم تشوه بفعل الحركة مثل الصور فى الماء بحيث يصيب النجاح من استطاع أن يتوسم الشكل الصحيح من وراء الصورة المشوهة (بوكسنشوتس ، ١٨٦٨ ، ٦٥) .

المحض[١] . فهذا المنهج المعدل لا يحسب حساب محتوى الحلم وحده بل يدخل كذلك فى تقديره طبع الحالم وملابسات حياته ، بحيث يختلف معنى العنصر الحلمى هو هو عند الغنى أو المتزوج أو الخطيب منه عند الفقير أو الأعزب أو التاجر مثلا . والشىء الجوهرى فى منهج الشفرة على أية حال ، هو أن عمل التفسير لا يوجه فيه إلى الحلم فى جملته بل يتناول كل جزء من محتواه على حدته ، كما لو كان الحلم حجراً جيولوجياً تستوجب كل شظية من شظاياه تقديراً خاصاً . ولا شك فى أن الأحلام المختلطة المفككة هى التى أدت إلى اختراع هذا المنهج[٢] .

---

(١) لقد ترك لنا أرتميد وروس الأفسوسى، المولود فى القرن الثانى من الميلاد على الأرجح ، كتاباً فى تفسير الأحلام كما كان يعرف فى العالم اليونانى الرومانى يفوق كل ما عداه من حيث الاستيعاب وضخامة الجهد . وهو يلح فى كتابه هذا — كما يبينه جومبرتس — على ضرورة تأسيس تفسير الحلم على الملاحظة والخبرة ، ويفرق تفرقة قاطعة بين فنه وغيره من الفنون الخادعة . وأما المبدأ الذى يقوم عليه فنه التفسيرى فلا يختلف بحسب جومبرتس من مبدأ السحر : إنه مبدأ التداعى ؛ فالشىء المرأى فى الحلم يعنى الشىء الذى يرد على الذهن فى صدده — وغنى عن البيان أن المراد هو ذهن المفسر لا الحالم . وإذ كان عنصر الحلم يذكر المفسر الواحد بأشياء مختلفة ، ويذكر هذا بغير ما يذكر به ذاك ، فقد كان ذلك مصدرا للحيرة والهوى لا سبيل إلى التغلب عليه . وتختلف الطريقة التى أصفها فى الصفحات القادمة من طريقة القدماءفى تلك الناحية الجوهرية: وهى أنها تلقى عبء التفسير على الحالم نفسه ، فهى لا تحسب حسابا لما يطرأ على بال المفسر وإنما اهتمامها بما يرد على ذهن الحالم . وترينا الروايات الحديثة للمبشر تفنكدجى (١٩١٣) أن مفسرى الأحلام المحدثين فى الشرق يعتمدون هم أيضا اعتمادا كبيرا على مؤازرة الحالم ، فهو يتحدث عن مفسرى الأحلام بين أعراب ما بين النهرين قائلا : « ولكى يفسر حلم ما تفسيراً مضبوطا ، ترى أمهر المفسرين يسألون من يشاورونهم عن جميع الملابسات التى يرون وجوب معرفتها من أجل الوصول إلى الحل الصحيح . . . وخلاصة القول هى أن مفسرينا لا يتركون كبيرة أو صغيرة تفوتهم ، ولا يدلون بالتفسير المنشود إلا بعد أن يمتلكوا الجواب عن جميع أسئلتهم تمام الامتلاك . »

["Pour interpreter exactement un songe, les oniromanciens les plus habiles s'informent de ceux qui les consultent de toutes les circonstances qu'ils regardent nécessaires pour la bonne explication ... En un mot nos oniromanciens ne laissent aucune circonstance leur échapper et ne donne l'interprétation desirée avant d'avoir parfaitement saisi et reçu toutes les interrogations désirables."]

ومن بين الأسئلة التى يوجهها المفسرون أسئلة تهدف إلى الإلمام بأوثق صلات الحالم بذوى قرباه — الوالدين والزوجة والأبناء — كما تجد صيغا محفوظة كهذه : " هل جامعت زوجك فى هاتيك الليلة قبل الحلم أم بعده ؟ "

["Habuistine in hac nocte copulam conjugalem ante vel post somnium ?"]

« هذا والفكرة المسيطرة على تفسير الأحلام تقوم فى تفسير الحلم بضده . »

["L'idée dominante dans l'interprétation des songes consiste à expliquer le rêve par son opposé."]

(٢) ينبغى الدكتور ألفريد روبيتسك إلى أن كتب الأحلام الشرقية التى تعد كتبنا بجوارها سرقات حرية بالرثاء كثيراً ما تستند فى تفسير عناصر الحلم إلى ما بين الألفاظ من الاتفاق فى الجرس أو التماثل . وضياع هذه العلاقات ضياعا محتوما عند الترجمة هو الذى يعلل استغلاق بعض التفاسير التى نجدها فى كتب الأحلام الشائعة بيننا . ويجد القارئ فى مؤلفات هوجو فينكلرز مزيدا من المعلومات عن القيمة الخارقة التى تعلقها المدنيات الشرقية

ولسنا نستطيع أن نشك برهة فى أن هذين المنهجين الشعبيين فى تفسير الأحلام لا يمكن استخدام أى منهما فى معالجة الموضوع معالجة علمية ؛ فالمنهج الرمزى محدود التطبيق ولا يمكن شرحه على أسس عامة ، وأما منهج الشفرة فكل شىء يتوقف فيه على إمكان الثقة « بالمفتاح » ، أى كتاب الحلم ، وهنا يعوزنا كل ضمان . وهكذا قد يغرى المرء بأن يسلم بأن الحق للفلاسفة وأطباء النفس ، فيمحو معهم مشكلة تفسير الحلم محوا ، باعتبارها مشروعاً خيالياً محضاً[١] .

بيد أنى قد تعلمت ما هو خير من ذلك ؛ فإنى لم أجد بداً من أن أدرك أننا نواجه هنا مرة أخرى حالة من هذه الحالات غير النادرة التى يبدو فيها اعتقاد شعبى قديم قدم الزمن ، لا تتزعزع عنه النفوس أقرب إلى حقيقة الأمور من الحكم السائد اليوم فى دنيا العلم . ولزام علىّ أن أؤكد أن الحلم له فى الحقيقة معناه وأن من الممكن أن يكون ثمت منهج علمى لتفسيره . وأما معرفة هذا المنهج فقد أتيت إليها من ذلك الطريق :

لقد شغلت سنوات طوالا بتحليل بعض التراكيب النفسية المرضية ، مثل المخاوف الهستيرية والأفكار القهرية وما شاكلها ، مستهدفاً فى ذلك علاجها . وشغلت بها على التحديد منذ أن علمت من كلمة هامة ليوسف برويير أن هذه التراكيب التى تعد أعراضاً مرضية — يتطابق فيها التحليل والحل[٢] . (أنظر برويير وفرويد ، ١٨٩٥) .

القديمة على التورية واللعب اللفظى . وعلى مثل هذا اللعب يقوم أجمل مثال على تفسير الحلم انحدر إلينا من الأزمنة القديمة ، وهو مثال يرويه أرتميدوروس إذ يقول (ص ٢٥٥) : « ويخيل إلى كذلك أن أريستا ندروس قد وفق أحسن التوفيق فى تفسير حلم الإسكندر المقدونى . فبينما كان هذا الأخير يحاصر مدينة تيروس [صور] وقد هاجه طول الحصار وأقلقه ، رأى فى المنام ساتيروس [كائن أسطورى] يرقص على درعه . واتفق أن كان أريستاندروس قريباً من صور ، فقد كان فى معية الملك أثناء حملته على السوريين ، فأمكنه بتقسيم كلمة ساتيروس إلى sa [سا = لك] و Tyros [تيروس = صور] أن يحث الملك على الاستيلاء فى الحصار حتى استولى على المدينة . » — والحق أن الرابطة بين الحلم والتعبير اللغوى قوية إلى درجة دعت فرنتسى إلا أن يلاحظ بحق أن لكل لسان لغته الحلمية الخاصة ، بحيث يستحيل بوجه عام أن يترجم الحلم إلى لغة أخرى . ولا أخال إلى أن الأمر كذلك فى كتاب مثل هذا الكتاب ، بيد أن الدكتور أ . أ . بريل ، من مدينة نيويورك ، وآخرين من بعده ، قد أفلحوا مع ذلك فى ترجمة « تفسير الأحلام » .

(١) لقد عثرت بعد أن فرغت من هذا الكتاب على مقال كتبه ستوميف اتفقت فيه آراءه مع ما أرمى إليه من التدليل على أن للحلم معناه وأنه يقبل التفسير . بيد أنه يجرى تفسيراته بالاستعانة برمزية ذات طابع استعارى تمثيلى ، دون أن يكون ثمت أقل دليل على جواز منهجه بوجه عام .

(٢) [Auflösung und Lösung — والمراد هو أن الكشف عن سر هذه الحالات لا يفترق من علاجها .]

فإن أمكن اقتفاء فكرة مرضية من هذا القبيل حتى العناصر التى نشأت منها هذه الفكرة فى حياة المريض النفسية ، امحت الفكرة وخلص المريض منها . وإزاء العجز الذى لمسته فى جهودنا العلاجية الأخرى ، وإزاء الطابع الملغز الذى تتسم به هذه الاضطرابات ، رأيتنى أغرى بالمضى فى الطريق الذى دلنى إليه برويير على الرغم من كل صعوبة ، حتى ينجلى الأمر كاملا . وسوف يتسنى لى فى مناسبة أخرى أن أفصل الكلام فى الصورة التى اتخذها هذا المنهج أخيراً وفى النتائج التى انتهت إليها جهودى . وإنما أقول الآن : إننى إنما التقيت بتفسير الأحلام فى خلال هذه المباحث التحليلية النفسية . ذلك أن مرضاى ، بعد أن أستعهد منهم الإفضاء إلىّ بكل فكرة أو خاطر يعن لهم ، كانوا يقصون على أحلامهم ضمن ما يقصون ، وهكذا تعلمت منهم أن الحلم يمكن إدراجه فى السلسلة النفسية التى يجب اقتفاء أثرها فى الذاكرة ابتداء من الفكرة المرضية . ومن هذا إلى أن يعامل الحلم نفسه معاملة العرض وأن يطبق عليه ذات المنهج التفسيرى الذى أحكم تدبيره للأعراض — لم يكن أمد بعيد .

وهذا العمل يقتضى بعض الإعداد السيكولوجى للمريض . فنحن نهدف معه إلى أمرين : زيادة انتباهه إلى مدركاته النفسية ، وتعليق ملكة النقد التى اعتاد أن ينخل بها ما ينبعث من أفكاره . ولكى يتمكن المريض من تركيز انتباهه فى الملاحظة الذاتية فمن الخير له أن يستلقى فى وضع هادىء ويغمض عينيه ، وعلينا أن نطلب منه صراحة الإقلاع عن كل نقد للأفكار التى يدركها ، ونخبره أيضاً أن نجاح التحليل مرتهن بملاحظته كل ما يدور برأسه وروايته إياه دون أن ينقاد إلى قمع هذا الخاطر من خواطره لأنه يبدو له خالياً من الشأن أو خارجاً عن الموضوع ، أو إلى قمع ذاك لأنه يبدو له غير معقول . فعليه أن يقف تجاه خواطره جميعاً موقف الحياد التام ؛ لأنه إذا كان لا يوفق عادة إلى الإيضاح المنشود للحلم أو الفكرة القهرية أو ما إليهما ، فالإخفاق مرده هذا الموقف النقدى على التحديد .

ولقد لاحظت فى خلال عملى التحليلى النفسى أن الوضع النفسى للمرء وهو يفكر يغاير كل المغايرة وضعه وهو يلاحظ عملياته النفسية . فالتفكير يتضمن نوعاً من النشاط النفسى يزيد على المتضمن فى الملاحظة الذاتية ، مهما بذل المرء فى هذه من الانتباه ، وبهذا تشهد — بين سائر الشواهد — هيئة المفكر المتوترة وجبهته المتعقدة ، على نقيض التعبير الساكن لمن

يلاحظ نفسه . فى كلا الحالين يلزم تركيز الانتباه ، ولكن من يفكر يعمل ملكة النقد فوق ذلك : ينحى بعض خواطره بعد أن يدركها ويقتضب بعضها الآخر دون أن يتابع مسالك الفكر التى كانت توحى بها . ثم هو يعرف كيف يسلك حيال فريق ثالث منها مسلكاً لا تبلغ معه إلى الشعور البتة ، فتقمع قبل أن تدرك . وأما الذى يلاحظ نفسه ، فليس عليه إلا أن يقمع ملكته النقدية . فإن أفلح ، تواردت إلى شعوره أفكار لا حصر لها ما كان ليجتازها بغير ذلك . و بهذه المادة المكتسبة حديثاً لإدراكه الذاتى على هذا النحو يمكن تفسير أفكاره المرضية وتراكيبه الحلمية على السواء . فالمسألة كما نرى هى أن نقيم حالة نفسية تماثل بعض المماثلة تلك التى تسبق النوم (وتماثل أيضاً حالة التنويم المغناطيسى من غير شك) ، من حيث توزيع الطاقة النفسية — أعنى توزيع الانتباه المتحرك . فقبيل النوم تنبعث « أفكار لا إرادية » ، نتيجة لاسترخاء نشاط إرادى معين (هو أيضاً نشاط نقدى ما فى ذلك من شك) كنا نتركه يؤثر فى مجرى أفكارنا ونحن مستيقظون . وأما سبب هذا الاسترخاء ، فنقول عادة : إنه « التعب » . وتستحيل هذه الأفكار اللاإرادية المنبعثة [قبل النوم] إلى صور بصرية وسمعية (أنظر ملاحظات شلاير ماخر وغيره فيما سبق ، ص ٨٤ وما بعدها .)[1] وأما فى الحالة المستخدمة لتحليل الأحلام والأفكار المرضية ، فيترك المرء هذا النشاط تركاً مقصوداً متعمداً ، ثم يعمل الطاقة النفسية المدخرة على هذا النحو (أو يعمل جزءاً منها على الأقل) فى الانتباه المتصل إلى الأفكار اللاإرادية التى تأخذ الآن فى الانبعاث ، والتى تظل — وهنا الفرق بين هذه الحالة وحالة الأخذ فى النوم — محتفظة بطابع الأفكار . وهكذا تحول الأفكار « اللاإدارية » إلى أفكار « إرادية » .

ويبدو أن هناك كثيراً من الناس لا يسهل عليهم الوقوف الموقف المطلوب حيال الأفكار المنبعثة « إنبعاثاً حراً » فى ظاهره ، واطراح النقد الذى ألفوا ممارسته إزاءها . فمن شأن « الأفكار اللاإرادية » أن تحرك مقاومة عنيفة فى الغاية ، تهدف إلى الحيلولة دون انبعاثها . ومع هذا فالخلق الشعرى نفسه لا بد يتضمن موقفاً يماثل الذى نصفه كل مماثلة — هذا إذا أولينا التصديق شاعرنا وفيلسوفنا العظيم فردريك شيللر . فهو فى فقرة من رسائله إلى كورنر

(١) لقد أتى سيلبرر بنتائج هامة فى تفسير الحلم ، وذلك بملاحظة هذا التحول للأفكار إلى صور ملاحظة مباشرة (١٩٠٩ ، ١٩١٠ ، ١٩١٢) . [أنظر « الظاهرة الوظيفة » فى الفهرست التحليلى .] .

يرجع فضل الكشف عنها إلى أوتورانك ، يرد على شكوى صديقه من افتقاره إلى القدرة الخالقة فيقول : « أعتقد أن السبب فى شكواك يرجع إلى استبداد عقلك بخيالك ، وسأضرب لمعناى بتشبيه يمثله لك : فإن العقل إذا غالى فى إكتاب النظر إلى الأفكار التى ترد عليه كأنه واقف لها بالمرصاد وهى لا تزال على الأبواب — إن جاز هذا التعبير — لم يكن فى ذلك نفع بل لعله يعرقل عمل النفس الخالقة . فالفكرة إن أخذتها على حدة قد تبدو تافهة كل التفاهة ، غريبة أقصى الغرابة ، ولكن أخرى قد تتلوها فإذا هى ذات شأن ، أو هى قد ترتبط بأفكار غيرها تلوح فى مثل سخفها فإذا هى الحلقة المفقودة ؛ فما يستطيع العقل أن يحكم على الكل إذا هو لم يمسك بالفكرة أمداً كافياً ليتأملها مقرونة بأخرياتها . وأما الذهن الخالق — فيما يهيأ إلى — ففيه على العكس يرفع العقل الحراسة عن الأبواب ، تاركاً الأفكار تهجم شذر مذر ، وعندئذ — عندئذ فقط — يأخذ فى النظر إليها وفحصها مجتمعة . وأما أنتم يا حضرات النقاد — أو أيا كان الاسم الذى يحلو لكم — فتستحيون — أو ترهبون — هذا الجنون العابر الموقوت الذى يعرفه كل خالق حقيقى ، والذى يفرق طول أمده أو قصره بين الفنان المفكر والحالم . ومن ثم شكواكم من العقم ، فأنتم تنبذون سريعاً وتفرقون عسفاً . » (خطاب الأول من ديسمبر ١٧٨٨) .

ومع هذا فما يسميه شيللر « رفع الحراسة عن أبواب العقل » ، أى التحول إلى حال من الملاحظة الذاتية التى لا يشوبها إعمال النقد ، ليس على الإطلاق بالأمر المتعذر .

فعظم مرضاى يوفقون إليه بعد سماع إرشاداتى الأولى ، وأنا نفسى أقوم به على أوفى وجه إذا استعنت فى خلاله بتدوين الخواطر التى تعن لى . ويتفاوت مقدار الطاقة النفسية التى تنقص من النشاط النقدى وتزاد بها شدة الملاحظة الذاتية تفاوتاً ضخماً بحسب الموضوع الذى يراد تثبيت الانتباه عليه .

وتعلمنا الخطوة الأولى فى استخدام هذا المنهج أننا لا نستطيع أن نتخذ الحلم فى مجموعه موضوعاً للانتباه ، وإنما الأجزاء المتفرقة لمحتواه . فلو سألت مريضاً لم يزل حديث العهد بالمنهج : ما الذى يخطر له فى صدد هذا الحلم ؟ ، لم يجد فى العادة شيئاً يدركه فى حقله النفسى . فإن قسمت له الحلم أجزاء أمكنه أن يدلى فى صدد كل جزء بطائفة من المستدعيات يجوز لنا وصفها بأنها « الأفكار المستترة » وراء هذا الجزء . وهكذا يختلف منهج التفسير الذى أزاوله من المنهج الشعبى التاريخى الطائر الذكر ، منهج التفسير بوساطة الرموز ،

من هذه الوجهة الهامة الأولى ، ويقترب من المنهج الثانى « منهج الشفرة » : فهو — كهذا الأخير — يفسر الحلم جزءاً فجزءاً وليس جملة ، وهو — مثله — يعد الحلم منذ البداية شيئاً مركباً ، مجتمع مكوّنات نفسية شتى .

ولقد فسرت فى خلال اشتغالى بالتحليل النفسى للعصابيين ما يربو على ألف الحلم ، ولكنى لا أريد أن أستخدم هذه المادة فى التمهيد الحاضر إلى طريقة تفسير الحلم ونظريته . فهناك — بغض النظر عن كون استخدام هذه الأحلا م يعرضنى لقول المعترض : إنها أحلام عصابيين لا تجوز النتائج المستخلصة منها على أحلام السويين — وهناك بغض النظر عن ذلك سبب آخر يفرض علىّ هذا الامتناع ؛ فمن الطبيعى أن يكون الموضوع الذى تسوق إليه أحلام مرضاى هو دائماً تاريخ المرض الكامن وراء أعصبتهم ، لذلك كان كل حلم من أحلامهم يستلزم تمهيداً مسهباً وغوصاً فى طبيعة الأعصبة وشروطها العلية ، وهذه فى ذاتها مسائل ذات جدة ، محيرة إلى أقصى مدى ، فقد تصرف الانتباه عن مشكلات الأحلام ، بينما أريد على العكس أن أتخذ تحليل مشكلات الحلم ذريعة إلى حل المشكلات السيكولوجية للأعصبة — وهى الأشد صعوبة . فإذا أغفلت الآن مادتى الرئيسة — أعنى أحلام العصابيين — لم يعد لى أن أتصعب فى الاختيار بين ما يتبقى ؛ فما تتبقى سوى أحلام من قبيل ما يرويه لى بين الحين والحين أشخاص سويون بين معارفى ، أو من قبيل تلك المساقة على سبيل المثال فى المصنفات الموضوعة عن الحياة الحالمة . ولكن هذه الأحلام جميعاً لا تصطحب لسوء الحظ بالتحليل الذى لا أستطيع بدونه أن أكشف معنى الحلم . فنهجى من غير شك ليس له يسر منهج الشفرة الشعبى ، حيث يترجم كل جزء من محتوى الحلم وفق مفتاح ثابت ، بل أنا أتوقع على العكس أن يكن ذات المحتوى معنى يختلف باختلاف الناس أو الملابسات . وهكذا أساق إلى أحلامى نفسى من حيث هى مادة وفيرة صدرت عن شخص قريب من السواء ، تتصل بوقائع متعددة الألوان من حياة كل يوم . ولا مرية فى أن البعض سوف يتشكك فى إمكان الثقة بمثل هذه « التحليلات الذاتية » ، وسوف أسمع أن مثل هذه التحليلات لا تتجنب الهوى . بيد أنى أعتقد أن الأوضاع قد تكون فى الحقيقة أعون على ملاحظة الذات منها على ملاحظة الغير . ومهما يكن من أمر ، فلمَ لا نحاول أن نرى إلا م نستطيع المضى فى تفسير الحلم بوساطة التحليل الذاتى ؟ وهناك عدا ذلك صعوبات أخرى يتحتم على التغلب عليها ، صعوبات ألاقيها هذه المرة فى داخل

نفسى : فبالإنسان نفور طبيعى يصده عن الإفراط فى البوح بسرائر نفسه ، ولا هو يضمن أن الغرباء لن يسيئوا التأويل . ولكن لا بد للمرء من أن يستطيع التغلب على مثل هذه الصعوبات . ولقد قال دلبوف : « من الواجب على كل عالم نفسى أن يفضى حتى بمواطن ضعفه ، إذا اعتقد أنه يلقى بذلك بعض الضوء على مشكلة غامضة . »[١] ثم إنى أقدر أن القارىء أيضاً لن يلبث أن يزول اهتمامه الأول بالأمور التى أرانى مضطراً إلى الإفضاء بها ، ليحل محل هذا الاهتمام اشتغال مانع بالمشكلات التى يعين هذا الإفضاء على جلائها[٢] .

وعلى ذلك أمضى فأنتخب حلماً من أحلامى وأوضح طريقتى فى التفسير بتطبيقها عليه ولكن كل حلم من هذا القبيل يستلزم بعض التمهيد . فلزام علىّ الآن أن أسأل القارىء أن يجعل مشاغلى مشاغله فترة ، وأن ينغمس معى فى أدق تفاصيل حياتى ؛ فمثل هذا التحويل أمر يقتضيه اهتمامنا بالمعنى الخبىء للأحلام اقتضاء آمراً .

تمهيد

كنت فى صيف عام ١٨٩٥ أعالج بالتحليل النفسى سيدة فى مقتبل العمر كانت تربطها بى وبأسرتى صداقة وثيقة . ونفهم أن من شأن مثل هذا التداخل فى العلاقات أن يثير كثيراً من المشاعر المضطربة فى نفس الطبيب ، وبخاصة إذا كان طبيباً نفسياً . فاهتمام الطبيب الشخصى يزيد ، لكن سلطته تقل . فإن أخفق ، كان فى ذلك ما يهدد صداقته القديمة بذوى المريض . بيد أن العلاج كان قد انتهى فى هذه الحالة إلى نجاح جزئى ؛ فقد برئت المريضة من هيلتها الهستيرية ، لكن دون أن تبرأ من جميع أعراضها الجسمية . وكنت فى ذلك الحين لا أعلم بعد علم اليقين ما هى المعايير التى تدل على انتهاء التاريخ المرضى لحالة من حالات الهستريا انتهاء لا رجعة بعده ، وكنت قد اقترحت على المريضة حلا بدا لها غير مقبول . وبين هذا الخلاف أوقفنا العلاج ؛ لإجازة فصل الصيف . وفى ذات يوم زارنى زميل يصغرنى سناً ، وهو أيضاً صديق من أقرب الأصدقاء إلىّ . وكان قد حل

---

(١) ["Tout psychologiste est obligé de faire l'aveu même de ses faiblesses s'il croit par là jeter du jour sur quelque problème obscur."]

(٢) ولا أنسى مع هذا أن أقيد هذا القول فأضيف أننى لم أكد أورد ولو مرة كل التفسير الذى أعرفه لحلم واحد من أحلامى . وأغلب الظن أنى كنت مصيبا حين اقتصدت فى الثقة بتصون القارئ .

ضيفاً على المريضة — إرما — وعائلتها فى مقرهم الصيفى ، فسألته عن حالها ، فأجابنى : « حسنة ، لكنه ليس الحسن كله . » وأعلم أن كلمات صديقى أوتو — أو نبرات صوته حين إلقائها — قد ضايقتنى ؛ فقد خيل إلىّ أنى أسمع فيها لوماً : كأن أكون وعدت المريضة بأكثر مما استطعت . وكان أنى عزوت — سواء مصيباً أم مخطئاً — ما توهمته من تعصب أوتو علىّ إلى تأثير أهل المريضة الذين لم ينظروا قط بعين الرضا إلى علاجى — أو هكذا كان يتسرب إلى ظنى . ولم يكن هذا الانطباع المؤلم واضحاً لى على أية حال ، كما أننى لم أبد ما يعرب عنه . وفى مساء ذلك اليوم كتبت تقريراً فى تاريخ مرض إرما ، كنت أنوى إعطاءه إلى الدكتور م . (وهو صديق مشترك كان فى ذلك الوقت صاحب الكلمة المسموعة بيننا) ، كأنما كنت أريد أن أبرئ نفسى . ثم فى الليل (أو فى الصباح المبكر على الأرجح) حلمت بهذا الحلم الذى بادرت إلى تدوينه عقب اليقظة مباشرة [١] .

حلم ليلة ٢٣ — ٢٤ من يوليه ١٨٩٥

قاعة كبيرة — ضيوف كثيرون ونحن نستقبلهم . — بينهم إرما ، أبادر إلى الانتحاء بها جانباً ، كأنما أريد أن أرد على خطابها ، أن ألومها على كونها لم تقبل « الحل »[٢] بعد . أقول لها : إذا كنت مازلت تتألمين ، فالذنب فى الحقيقة ذنبك وحدك . — تجيبنى قائلة : لو علمت أية أوجاع أحسها الآن فى الحلق والمعدة والبطن ، إنها تختنقنى — أفزع وأنظر إليها . إنها تبدو شاحبة منتفخة ، أحدث نفسى : لابد أن ثمت شيئاً عضوياً أغفلته . آخذها إلى جوار النافذة وأنظر فى حلقها . حينئذ تبدى بعض الممانعة ، شأن النساء اللائى يحملن أسناناً صناعية . أقول لنفسى : وما بها مع هذا من حاجة إلى ذلك . — عندئذ ينفتح فمها كما ينبغى ، فأرى بقعة كبيرة بيضاء[٣] على الجانب الأيمن ، وفى موضع آخر أرى قشوراً كبيرة ذات لون رمادى يضرب إلى البياض ، انتشرت فوق زوائد متجعدة ، غريبة الشكل ، كان من الجلى أنها قد صيغت على غرار الحياشيم الأنفية . — أستدعى الدكتور م . على الفور ، فيعيد الفحص ويؤيده . . . إن الدكتور م . يبدو مختلفاً من نفسه كل الاختلاف ؛ فهو شاحب جداً ، يعرج فى مشيته ، حليق الذقن . . . الآن يقف بجانبها صديقى أوتو كذلك ، وصديقى ليوبولد ينقر صدرها من فوق الصدار ويقول : إن ثمت منطقة صماء على الجانب الأيسر إلى أسفل ، ثم ينبه أيضاً إلى رقعة مرتشحة من الجلد على الجانب الأيسر (وهو ما ألحظه مثله على الرغم من الرداء) . . . يقول م . : لا شك فى أن هذه عدوى ، ولكن هذا ليس بشىء ؛ فسوف تعقب الدستاريا وينطرد السم . . . إننا نعلم أيضاً علماً مباشراً من أين نشأت العدوى . فقد حقنها صديقى أوتو منذ قريب ، وقد ساءت صحتها يوماً ، حقنة من مركب من البروبيل . . . بروبيلين . . . حامض البروبيونيك . . . تريميتيلامين (وهنا أرى المعادلة الخاصة بتركيب هذه المادة الأخيرة مطبوعة أمامى بحروف سميكة) . . . إن مثل هذه الحقن لا يقدم عليها المرء بمثل هذه الخفه ، وأغلب الظن أن المحقنة لم تكن نظيفة كذلك .

---

(١) ذلك هو أول حلم حللته تحليلا مستفيضا .

(٢) ["Losung" ، ويعنى أيضاً " المحلول " .]

(٣) [أسقطت كلمة " بيضاء " من طبعة سنة ١٩٤٢ وحدها وهو إسقاط مرجعه السهو من غير شك .]

إن لهذا الحلم ميزة على أحلام كثيرة غيره : فنحن نرى على الفور بأى أحداث اليوم السابق يرتبط وأى موضوع يعالج . فالكلمة التى مهدت له بها تأتى فى ذلك بالبيان : فالأنباء التى حملها إلىّ أوتو عن حالة إرما ، وتاريخ مرضها الذى انهمكت فى تحريره إلى ساعة متأخرة من الليل قد ظلا يشغلان نشاطى النفسى حتى بعد أن نمت . ومع هذا يعجز من ألم بالتمهيد وبمحتوى الحلم عن أن يحذر معناه . ولا كنت أنا نفسى أعلمه . فأنا أعجب للأعراض التى تشكوها إرما فى الحلم ؛ فهى غير الأعراض التى من أجلها عالجتها . وأما هذه الفكرة الجوفاء ، عن حقنة مركبة من حامض البروپيونيك ، وكذلك كلمات العزاء الموضوعة على لسان الدكتور م . ، فكل هذه تدعونى إلى الابتسام . ثم إن الحلم يبدو لى فى نهايته أكثر إبهاماً وكثافة منه فى أوله . ولا بد ، لكى أعرف معنى هذا كله ، من أن أعقد العزم على تحليله تحليلا دقيقاً .

التحليل

القاعة — ضيوف كثيرون ، ونحن نستقبلهم . كنا نقضى ذلك الصيف فى بلڤى [1] فى منزل منعزل قام على أحد التلال الملتحقة بالكالنبرج . وكان قد قصد فى بناء هذا المنزل إلى أن يكون مكاناً للهو ، ولهذا كانت به غرف تخرج عن المألوف فى علو أسقفها ، أشبه بالقاعات . وفى بلڤى أيضاً وقع لى هذا الحلم ، وكان وقوعه يسبق عيد ميلاد زوجى بأيام معدودات . وكانت زوجى قد ذكرت لى فى اليوم الذى سبق الحلم أنها تتوقع أن يزورنا عدد من الأصدقاء — بينهم إرما — يوم عيد ميلادها هذا . فالحلم إذن يسبق إلى هذا الموقف : إنه عيد ميلاد زوجى ، ونحن نستقبل ضيوفاً كثيرين — ومن بينهم إرما — فى القاعة الرحبة بمنزل بلڤى .

ألوم إرما على كونها لم تقبل الحل ، أقول لها : إذا كنت ما زلت تتألمين ، فالذنب فى الحقيقة ذنبك وحدك . لقد كان من الممكن أن أقول لها هذا الكلام فى حياة اليقظة ، أو قد أكون قلته فعلا . فقد كان من رأيى فى ذلك الوقت (وهو رأى عرفت خطأه فيما بعد) أن مهمتى تقف عند إطلاع المريض على المعنى المستتر لأعراضه ، فأما أن يقبل المريض هذا الحل

(١) [مصيف على مشارف ڤيينا .]

أو ألا يقبله، فأمر لا شأن لى فيه — وإن كان النجاح مرهوناً به . ولقد كان من فضل هذا الخطأ علىّ (وإن أكن صححته اليوم لحسن الحظ) أنه هون على الحياة فى وقت كان من المفروض فيه ن أظفر بنتائج علاجية ناجحة مع جميع ما كنت عليه من جهل محتوم . — بيد أنى ألحظ من العبارة التى أتحدث بها فى الحلم إلى إرما أننى إنما أريد قبل كل شىء أن كون بريئاً من ذنب الآلام التى لا تزال تعانيها : إذا كان الذنب ذنبها ، لم يكن ذنبى . أنلتمس هدف الحلم فى هذا الاتجاه ؟

شكايات إرما : أوجاع فى الحلق والبطن والمعدة ، كانت تخنقها . كانت آلام المعدة بين أعراض مريضتى ، لكنها لم تكن من أعراضها البارزة ، بل كان معظم شكواها من أحاسيس بالغثيان والاشمئزاز . وأما آلام الحلق والبطن وانقباض الحلق ، فلم يكد يكون لها نصيب فى مرضها . وإنى لأعجب لم قررت أن أختار هذه الأعراض فى الحلم . بيد أنى لا أعلم سر ذلك الآن .

إنها تبدو شاحبة منتفخة . لقد كانت مريضتى متوردة اللون دائما. إنى ليساورنى الشك فى أن يكون شخص آخر قد حل محلها هنا .

أفزع إذ أفكر فى أننى ربما كنت أغفلت مرضا عضوياً ما . إن من السهل أن نصدق أن مثل هذا الإغفال مصدر هيلة لا تنقطع عند طبيب متخصص لا يكاد يرى غير العصابيين وصار من عادته أن ينسب إلى الهستريا عددا كبيرا من الأعراض التى يعالجها الأطباء الآخرون معالجة الأمراض العضوية . وهناك من ناحية أخرى شك خافت أخذ يتسرب إلى نفسى — من أين ؟ لا أدرى — هو الشك فى أن يكون فزعى هذا فزعا صادقا كل الصدق : إذا كانت آلام إرما ذات أصل عضوى ، لم أكن — مرة أخرى — مسئولا عن شفائها ؛ فعلاجى إنما يزيل الآلام الهستيرية . وهكذا يخطر لى أننى ربما كنت فى الحقيقة راغبا فى أن يكون ثمت خطأ فى التشخيص ؛ فحينئذ يزول عنى أيضا اللوم على الإخفاق .

آخذها إلى جوار النافذة لكى أنظر فى حلقها . تبدى بعض الممانعة شأن النساء اللائى يحملن أسناناً صناعية ، أقول لنفسى : وما بها مع هذا من حاجة إلى ذلك . لم يعرض قط فى علاج إرما ما يدعو إلى فحص تجويف فمها . وإنما يذكرنى ما يقع فى الحلم بفحص آخر أجريته منذ وقت ما : كانت المريضة مربية تبدو للوهلة الأولى صورة من صور الجمال الغض، فلما وجب أن تفتح

فاها، أخذت تحتاط لكى تخفى « طقم » أسنانها . ويسوقنى ذلك إلى ذكريات أخرى عن الفحوص الطبية وما تكشف عنه من أسرار صغيرة لا تسر طبيبا ولا مريضا . وأما قولى : وما بها مع هذا من حاجة إلى ذلك ، فيبدو للوهلة الأولى إطراء لإرما ، بيد أنى أتصور له معنى آخر عدا ذلك — وإن المرء إذا أعمل انتباهه فى أثناء التحليل ، أحس أهو استنفد كل الأفكار المستترة التى يصح له توقعها أم لا . ثم إن الوضع الذى اتخذته إرما وهى واقفة إلى جوار النافذة يذكرنى فجأة بواقعة أخرى : فقد كانت لإرما صديقة حميمة كنت أكن لها أكبر التقدير ، ثم اتفق أنى زرتها ذات مساء فوجدتها واقفة إلى جوار النافذة فى الوضع الذى أعاده الحلم ، وقال طبيبها — وكان الدكتور م . عينه — إنها تشكو من غشاء دفتيرى. إن شخص الدكتور م . يظهر من جديد فى الحلم ويظهر أيضا الغشاء . وهنا يخطر لى أننى فى الأشهر القليلة الأخيرة قد دعتنى كل الأسباب إلى أن أفترض أن هذه السيدة الأخرى إنما تشكو كذلك آلاما هستيرية . لا ، بل إن إرما نفسها قد كشفت ذلك لى . ولكن ما الذى أعلمه عن حالها ؟ شىء واحد على التحديد : وهو أنها تشكو اختناقا هستيريا ، شأن إرما فى الحلم . وأنا إذن فى الحلم قد استبدلت بإرما صديقتها . ويحضرنى الآن أنى كثيرا ما داعبتنى تلك الفكرة : أنها أيضا — أعنى صديقة إرما — قد تسألنى يوما الخلاص من أعراضها . على أنى كنت أقدر فى الوقت نفسه أن هذه فكرة بعيدة عن الاحتمال ؛ لما كان بطبع هذه السيدة من شدة التحفظ : إنها تمانع مثل إرما فى الحلم. وسبب آخر لموقفها : وهو أنها لم تكن بحاجة إلى ذلك ؛ فهى فى الحقيقة قد أبدت حتى هذه اللحظة قدرة كافية على مغالبة ما بها من غير حاجة إلى عون خارجى . وتبقى بعد ذلك بضع ملامح لا أستطيع إسنادها إلى إرما أو صاحبتها : شاحبة ، منتفخة ، أسنان زائفة . فأما الأسنان الزائفة فتذهب إلى المربية التى سبق أن ذكرتها ، وأشعر الآن أننى أستطيع أن أكتفى بهذا القسط فى باب الأسنان الرديئة . وأفكر بعدئذ فى شخص آخر قد يكون فى هذه الملامح ما يومئ إليه : إن التى أعنى لم تكن أيضا بين مرضاى ، ولا كنت أحب أن أكون طبيبها ؛ فقد لاحظت منها تحرجا شديدا فى محضرى ، ولا أظنها كانت تكون مريضا سهل القياد . إنها كانت شاحبة اللون عادة واتفق حينا أن بلغت صحتها أوجها فكانت تلوح ممتلئة[1] . وهكذا أقارن إرما فى

---

(١) ربما كان من الممكن أن نرد إلى هذا الشخص الثالث أيضاً شكوى آلام البطن التى بقيت من غير =

الحلم بشخصين آخرين ما كانا هما أيضا إلا ليبديا ممانعة فى العلاج لو قد أخذا فيه . فأى داع دعانى أن أبدل بإرما صديقتها ؟ لعله أنى كنت أرغب فى هذا التبديل فعلا ؛ إما لأن الأخرى كانت تحرك فى نفسى انعطافا أكبر إليها أو لأنى كنت أرفع تقديرا لذكائها ؛ فقد كنت أراه حمقا من إرما أنها لم تقبل الحل . فأما الأخرى فكانت تكون أكثر فطنة ومن ثم أسرع استسلاما ، حينئذ كان ينفتح الفم كما ينبغى : إنها كانت ستفضى إلى بأكثر مما أفضت به إرما[1] .

ما أراه فى الحلق : بقعة بيضاء وخياشيم عليها قشور . إن البقعة البيضاء تذكرنى بالدفتريا ومن ثم بصديقة إرما . ولكنها تذكرنى أيضا بالمرض الذى أصاب ابنتى منذ عامين على التقريب وبكل الجزع الذى عانيته فى هذه الأيام التعسة . وأما القشور المنتشرة على الخياشيم فتذكرنى بقلق يساورنى على صحتى نفسى . فقد كنت فى هذه الأيام أكثر من استخدام الكوكايين لأخفف به تورما أنفيا ممضا ، وكنت سمعت قبل الحلم بأيام قلائل أن إحدى مرضاى حذت حذوى فأصابها نكروز واسع النطاق فى الغشاء الأنفى المخاطى . ولقد كنت أول من أوصى باستعمال الكوكايين فى سنة ١٨٨٥[2] ، وجرت علىّ هذه التوصية ملائم خطيرة . ثم إن الإفراط فى استعمال هذا الدواء قد عجل بموت صديق عزيز على ، وكان موته قبل سنة ١٨٩٥ .

استدعى الدكتور م . على الفور ، فيعيد الفحص ويؤيده . ذلك ما يتفق ومكانة الدكتور م . بيننا . غير أن « على الفور » هذه تستلفت نظرى ، بحيث يقتضى أمرها إيضاحاً

= إيضاح . وغنى عن البيان أن هذا الشخص الثالث كان زوجى نفسى ، وتذكرنى آلام البطن بمناسبة لحظت فيها تحرجها . ولا أجد مفرا من أن أصارح نفسى بأنى لا أحسن فى هذا الحلم إلى إرما ولا إلى زوجى . ولكن قد نلاحظ على سبيل المعذرة أننى إنما أقارنهما بمثال المريضة الشجاعة الطيعة .

(١) إنى أحس أننى لم أواصل تفسير هذا الحلم حتى أتأثر كل معنى خبىء ، ولو أنى أردت أن أواصل المقارنة بين النساء الثلاث لذهب بى ذلك مذهبا بعيدا . — إن فى كل حلم موضعا واحدا على الأقل يخسف فيه قراره ، سُرَّة — إن جاز التعبير — يرتبط منها بالمجهول .

(٢) [هذا خطأ لم يصححه فرويد فى أى من الطبعات الثمانى التى ظهرت فى حياته . والصحيح أنه أوصى باستعمال الكوكايين فى مقال نشر له عام ١٨٨٤ . ولقد يدرك المرء سر هذا الخطأ إذا قرأ الفصل السادس من الجزء الأول من كتاب جونز عن حياة فرويد ، وهو مخصص لأبحاث فرويد فى الكوكايين وما ارتبط بها من الأحداث . ومنه نعلم أيضاً أن " الصديق العزيز " المشار إليه هو فلايشل فون ماركسوف أحد معارفى بروكه فى المعهد الفيزيولوجى الذى عمل فيه فرويد . ويجد القارئ فيما بعد إشارات أخرى متعددة إلى هذه القصة ، ص ١٩٥ ، ٢٢٩ ، ٢٣٩ .]

خاصا . إنها تذكرنى بحادثة فاجعة وقعت لى فى أثناء القيام بمهنتى : فقد حدث مرة أننى كنت سببا فى أن أصيبت إحدى مريضاتى بتسمم حاد ، وذلك بأن وصفت لها المرة بعد المرة دواء كان يعد فى ذلك الوقت لا ضرر منه (السيلفونال) ، وكان أنى هلعت إلى هذا الزميل الذى يكبرنى سنا وحنكة ، ألتمس منه العون والسند . وهناك قرينة تؤيد أننى كنت أفكر حقيقة فى هذا الحادث : فقد كانت المريضة التى أودى السم بها تحمل اسم ابنتى الكبرى . وما فكرت قط فى هذا الاتفاق من قبل ، ولكنه يلوح لى الآن أشبه بقصاص من القدر ، لكأنما كان من الحتم أن يواصل تبديل الأشخاص بعضهم ببعض فى تلك الوجهة الأخرى : ماتيلدا هذه بماتيلدا تلك ، عين بعين وسن بسن . إنه ليبدو أننى كنت أتلمس كل مناسبة أستطيع أن أؤنب بها نفسى على افتقارها إلى الضمير الطبى .

الدكتور م . شاحب الوجه ، حليق الذقن ، يعرج فى مشيته . جانب الصدق فى ذلك هو أن الدكتور م . كثيرا ما يثير مظهره المعتل قلق أصدقائه . وأما السمتان الأخريان فإنما تصدقان من غير شك على شخص آخر : إنى أذكر هنا أخى الأكبر الذى يعيش فى الخارج ؛ فهو حليق الذقن ، وإذا لم تكذبنى الذاكرة فقد كان م . الحلم يشبهه . وكنا قد علمنا قبل الحلم بأيام قلائل أنه كان يعرج فى مشيته لالتهاب مفصلى فى أعلى فخذه اليسرى . ولا إلا أرى أن ثمت سبباً من أجله أدمجت فى الحلم الاثنين فى واحد : وإنى لأذكر بالفعل أننى كنت واجدا على كليهما لأسباب متماثلة ؛ فكلاهما قد رفض اقتراحا كنت عرضته عليه .

صديق أوتو يقف الآن بجانبها بينما يفحصها صديق ليوبولد ويكشف عن منطقة صماء فى أسفل الجانب الأيسر . إن صديقى ليوپولد طبيب كذلك وله بأوتو قرابة . وقد شاء القدر إلا أن يكونا غريمين ؛ فقد سلكا اختصاصا واحدا وكانت لمفاضلة بينهما لا تنقطع . وقد عاونني كلاهما بضع سنوات حين كنت أدير مستشفى خاصا بالأمراض العصبية للأطفال وكانت تقع هناك مشاهد شبيهة بالذى يقع فى الحلم : فبينما كنت أناقش أوتو إحدى الحالات كان ليوپولد يعود إلى فحص الطفل المريض ثم يخرج بجديد يكون له أثره الحاسم فى قرارنا . وكان بين الاثنين من التباين فى الطبع مثل ما بين المفتش برازيج وصديقه كارل (١) : فأحدهما قد عرف بحضوره وتوقده ، وأما آخرهما فبطىء ، لكنه

(١) [شخصيتان رئيستان فى رواية كتبها فريتس رويتر (١٨٦٢ – ٦٤) وكان لها ذيوع عظيم فى وقت ما .]

لا يترك كبيرة ولا صغيرة . وجلى أنني إذ أفاضل فى الحلم بين أوتو وليوپولد الحذر فإنما أبتغى من وراء ذلك إعلاء ليوپولد؛ فالمفاضلة بينهما أشبه بها بين مريضتى العصبية إرما وبين صديقتها التى كنت أراها أكثر رجاحة . وهأنذا الحظ الآن أحد المسالك التى عرج عليها تداعى الخواطر فى الحلم : من الطفلة المريضة إلى مستشفى الأطفال وأما المنطقة الصماء بأسفل الجانب الأيسر فيخيل إلى أنها تطابق فى كل تفاصيلها حالة مماثلة أدهشنى فيها ليوپولد بدقته . وبذهنى أيضا فكرة مبهمة ، هى أن هذا الكدر ربما كان وليد سروح مرضى [١]. ولعل فى هذه الفكرة ما يلمح كذلك إلى الصديقة التى كنت أود علاجها بدل إرما ؛ فقد ظهرت من هذه السيدة — بقدر — ما وسعنى الحكم — أعراض تحاكى الدرن .

رقعة مرتشحة من الجلد على الكتف الأيسر . أرى على الفور أن المراد هنا هو الروماتزم الذى أعانيه فى كتفى نفسى والذى لا أسهر ليلة حتى ساعة متأخرة إلا أحسسته . وإن الطريقة التى ركبت بها عبارة الحلم نفسها لتتسم هى أيضا بالاشتراك[٢] إلى أبعد حد : « وهو ما ألحظه مثله . . . » ، ألحظه فى جسمى نفسى — هذا هو المقصود[٣]. ويتبادر إلى ذهنى عدا ذلك كيف يخرج هذا التعبير : « رقعة مرتشحة من الجلد » عن المألوف ؛ فقد كان من عادتنا أن نقول : « ارتشاح بأعلى اليسار خلفا » — وهو ما يشير إلى الرئة فإلى الدرن مرة أخرى .

على رغم الرداء . هذه الكلمات لا تخرج على التأكيد عن أن تكون إضافة ثانوية ؛ فنحن بالطبع كنا نفحص الأطفال فى المستشفى وهم مجردون من ثيابهم ، على عكس ما يجب اتباعه عند فحص النساء . وأذكر أنه كان يروى عن أحد الأطباء المشهورين أنه كان يجرى الفحص الجسمى لمرضاه من خلال ثيابهم . وأما فيما عدا ذلك ، فلست أتميز شيئا . والصراحة هى أننى لا أريد التعمق فى هذا الموضع .

يقول الدكتور م. إنها عدوى ، ولكن ذلك ليس بشىء سوف تغلب الستتاريا وينطرد السم . ذلك ما يبدو لى شيئا مضحكا للوهلة الأولى . ولكن لا بد مع هذا من تحليله تحليلا مستوفى ،

---

(١) [انتقال العلة من عضو لآخر .]

(٢) [اللفظ المشترك هو ما كان له معنيان .]

(٣) [والانتقال من المعنى الأول إلى المعنى الثانى يسهله فى الألمانية لعب بالألفاظ يضيع عند الترجمة ؛ لأن Wie er spüre (بمعنى " ألحظه مثله ") لا يكاد يختلف فى النطق من verspüre (بمعنى " أحسه ") .]

شأنه شأن غيره . وإنى لألمح فيه ضربا من المعنى إذ أقرب النظر إليه . فالمرض الذى اكتشفته بالمريضة كان التهابا دفتريا بالحلق . وإنى لأذكر مناقشة دارت أيام مرض ابنتى حول العلاقة بين الالتهاب الدفترى الموضعى والدفتريا ؛ فالأخيرة هى العدوى المعممة التى تنشأ من الدفتريا الموضعية وكان ليوپولد يستدل على مثل هذه العدوى المعممة من وجود المنطقة الصماء التى يصح تبعا لذلك أن نعدها ناتجة عن السروح المرضى . وأما أنا فكنت أعتقد أن مثل هذا السروح المرضى لا يقع فى الدفتريا ، بل هو يذكرنى على الأكثر بالحمى الصديدية .

ذلك ليس بشىء . إن المراد هو العزاء . وأما وجه الحاجة إلى العزاء فى هذا المقام ، فهو الآتى : لقد كان مضمون الجزء السابق من الحلم أن مريضتى تشكو آلاما ترجع إلى علة عضوية خطيرة ، وبهيأ إلىّ أننى إنما كنت أبتغى من وراء ذلك أن أصرف اللوم عن نفسى ؛ فالعلاج النفسى لا يمكن أن يُسأل عن دوام آلام دفترية ، ولكن ينغصنى مع هذا أن أكون اخترعت لإرما مثل هذه العلة الخطيرة لا لغاية سوى أن أبرئ نفسى ؛ فى هذا تظهر القسوة كل القسوة ، وأنا إذن بحاجة إلى من يؤكد لى حسن العاقبة ، وأخال أنى لم أسىء الاختيار حين أجريت العزاء على لسان الدكتور م . بالذات . بيد أننى أسمو بنفسى فوق الحلم فى هذا الموضع ، وهذا نفسه يحتاج إلى إيضاح .

ثم لماذا صيغ العزاء فى هذه العبارة المجردة من كل معنى ؟

الدستاريا : أسرحُ إلى ضرب من فكرة نظرية غامضة فحواها أن المواد السامة يمكن أن تطرد من طريق الأمعاء . أيكون أنى أريد أن أهزأ بخصْب الدكتور م . فى تصور التعليلات المستبعدة وإنشاء العلاقات المرضية غير المتوقعة ؟ إن الدستاريا تذكرنى أيضا بشىء آخر : فقد عنيت منذ بضعة شهور بشاب كان يعانى متاعب عجيبة تتعلق بالتبرز ، عالجها زملاء آخرون على أنها « فقر دم مع تغذية سيئة » . وأدركت من جانبى أن الأمر يتعلق بحالة هستيرية ، بيد أننى لم أرد أن أجرب معه علاجى النفسى ، وأرسلته فى رحلة بحرية . وحدث قبل الحلم بأيام أنى تلقيت منه خطابا يائسا من مصر جاء فيه أن نوبة جديدة ألمت به هناك وأن الطبيب أعلن إليه أنها الدستاريا . وأكبر ظنى أن هذا التشخيص خطأ انزلق إليه زميل غير عليم ترك الهستيريا تمكر به ، ولكنى لا أستطيع مع ذلك أن أجنب نفسى اللوم على أنى جعلت المريض فى موقف قد تُصاب منه أمعاؤه بمرض عضوى فوق

مرضها الهستري . وفوق ذلك فلفظ « دستريا » يشبه فى الجرس « دفتريا » — وهو اسم نَحْسٌ لا يعرض ذكره فى الحلم .

نعم ، هو هذا من غير شك : إننى أسخر من الدكتور م . إذ أجرى على لسانه هذه النبوءة المعزية :سوف تعقب الدستناريا . . . إلخ . فأنا أذكر أنه نفسه — قبل ذلك بسنوات — قد روى مرة وهو يضحك قصة جد مماثلة عن زميل من الزملاء: فهو — أعنى الدكتور م . — قد دعى مرة ليتشاور وهذا الزميل فى شأن مريض اشتدت به العلة اشتدادا خطيرا . وأحس الدكتور م . أن الواجب يقتضيه أن ينبه زميله — وكان يبدو جم التفاؤل — إلى أنه قد وجد ببول المريض مادة الألبومين . ولكن الزميل أبى أن يأبه لذلك وأجاب هادئا : « ذلك ليس بشيء يا سيدى العزيز ، فلسوف ينطرد الألبومين سريعا ! » وهكذا لا أملك التشكك بعد الآن فى أن هذه الفقرة من الحلم تحوى فى طياتها استخفافاً بالزملاء الذين لا يعلمون أمر الهستريا . وها هى ذى فكرة أخرى تجول الآن بخلدى كأنما أريد بها أن تؤيد هذا الرأى: أيعلم الدكتور م . أن الأعراض التى تشكوها مريضته صديقة إرما — والتى تحدوه إلى خشية السل، إنما تنبعث هى أيضامن الهستريا ؟ أتراه فضح الهستريا ، أم تراها « ضحكت عليه » ؟

ولكن أى دافع يدفعنى إلى أن أسيء إلى هذا الصديق كل هذه الإساءة ؟ الجواب هين : ذلك أن « الحل » الذى أرتأيه لإرما لا يلقى من قبول الدكتور م . إلا ما يلقاه من إرما نفسها . وهكذا أكون انتقمت فى هذا الحلم من شخصين : من إرما حين أقول : إذا كنت ما زلت تتألمين ، فالذنب ذنبك أنت ، ثم من الدكتور م . بمنطوق العزاء المجرد من المعنى الذى وضعته على شفتيه .

إذا نعلم أيضاً علماً مباشراً من أين نشأت العدوى . هذه المعرفة المباشرة فى الحلم مدعاة إلى العجب ؛ فما كنا نعلم من أمرها شيئا منذ هنيهة ،إذ كان ليوپولد أول من اكتشف وجود العدوى .

حقنها صديقى أوتو منذ قريب حين ساءت صحتها يوماً . لقد روى لى صديقى أوتو حقيقة أنه قد استدعى يوما فى أثناء إقامته القصيرة مع أسرة إرما إلى فندق مجاور ليحقن شخصاً ساءت صحته فجاءة . وتذكرنى الحقن مرة أخرى بصديقى التعس الذى سمم نفسه بالكوكايين. لقد كنت أوصيته باستعمال هذا الدواء من الباطن فحسب [أى من طريق الفم] بعد

ابتداء التخلص من المورفين، ولكنه بادر إلى حقن نفسه بالكوكايين .

مركب من البروبيل . . . بروبيلين . . . حامض البروبيونيك . كيف اتفق لى التفكير فى ذلك ؟ لقد حدث فى الأمسية السابقة — قبل أن أكتب تاريخ الحالة المرضية ويأتينى هذا الحلم — أن فتحت زوجتى زجاجة شراب كتب عليها « أناناس »[١] وكانت هذه الزجاجة هدية من صديقنا أوتو ؛ فقد كان من عادته أن ينتهز كل مناسبة لكى يزف هداياه ، والأمل أن يرزق يوما بزوج فيبرأ من هذه العادة[٢] . وكانت تفوح من هذا الشراب رائحة زيت الفوزل ، حتى أننى امتنعت عن مذاقه . وخطر لزوجى أن تعطى الخدم هذه الزجاجة، ولكنى كنت أكثر حذراً منها ، فأجبتها بهذه الملاحظة الإنسانية : هم أيضا لا يجب أن يتسمموا . وجلى أن رائحة زيت الفوزل (آميل . . .) قد استدعت هذه السلسلة كلها : بروبيل ، ميتيل، وما إليها — وهو ما يعلل ورود مركب البروبيل فى الحلم . صحيح أننى أجريت هنا بعض التبديل ، فحلمت بالبروبيل بعد أن شممت الآميل، ولكن مثل هذه التبديلات قد تجوز فى الكيمياء العضوية بخاصة .

تريميتيلامين . لقد رأيت فى الحلم المعادلة الكيميائية لهذه المادة، وهو ما يشهد بمجهود عظيم من جانب ذاكرتى . ثم إنى رأيتها مطبوعة بحروف سميكة ، كأنما أريد أن يُنصَّ لها على أهمية خاصة فى هذا السياق . فإلام يسوقنى التريميتيلامين الذى يُفرض على انتباهى على هذا النحو ؟ إلى حديث دار يوما بينى وبين صديق كان يعلم كل شىء عن مؤلفاتى وهى فى طور النمو كما كنت أعلم منه المثل[٣] . ففى خلال هذا الحديث أفضى إلى صديقى بآرائه فى كيمياء العمليات الجنسية وكان بين ما ذكره لى أن التريميتيلامين — على ما يعتقد —

---

(١) وهناك بعد ذلك جناس ملحوظ بين " أناناس " واسم عائلة مريضتى إرما .

(٢) [هامش أضيف فى عام ١٩٠٩ ثم حذف ابتداء من عام ١٩٢٥ :] لم يكن الحلم نبيا من هذه الناحية ، ولكنه كان كذلك فى ميدان آخر : فالآلام التى كانت تعانيها مريضتى إرما " من غير حل " والتى كنت حريصاً كل هذا الحرص على ألا ألام عليها قد ثبت أنها كانت العلائم الأولى على اضطراب خطير فاجم عن حصوة فى كيس الصفراء .

(٣) [الصديق الذى تذهب إليه هذه الإشارة هو ڤيلهلم فليس ، وكان أخصائيا فى أمراض الأنف والحنجرة فى مدينة برلين، ولكن اهتماماته شملت ميدان علم الحياة بأجمعه ، وكانت له فى هذا العلم نظريات أقل ما يقال عنها هو أنها كانت تتسم بالغرابة . ولكى تعرف شيئا عن هذه النظريات وعن صلة صاحبها بفرويد وأثره فى حياته ، فلا معدى عن قراءة رسائل فرويد إليه التى نشرت أخيرا مع مقامة كتبها إرنست كريس (فرويد ١٩٥٠ أ). هذا وسوف يكثر ذكر هذا الصديق فى خلال الصفحات القادمة ، دون الإشارة إلى اسمه أو مشاراً إليه بحرف الفاء .]

أحد المواد الناتجة عن الميتابوليزم الجنسى . وهكذا تسوقنى هذه المادة إلى الحياة الجنسية ، وهى العامل الذى أعزو إليه أكبر الأهمية فى نشوء الاضطرابات العصبية التى أروم علاجها . ومريضتى إرما أرملة فى مقتبل العمر ؛ فلو سُئلت عذرا أبرر به إخفاق علاجى ، ما وجدت خيرا من الاحتجاج بهذا الوضع الذى يود أصدقاؤها لو تغير . ولكن يا للعجب لتركيب مثل هذا الحلم! فالمرأة الأخرى — تلك التى جعلتها مريضتى بدل إرما — أرملة شابة هى الأخرى .

إنى أحذر الآن لم أبرزت معادلة الترمتيلامين كل هذا الإبراز فى الحلم ؛ فكم من أمور ذات بال تلتقى فى هذه الكلمة الواحدة ! إن الترمتيلاين لا يشير إلى الحياة الجنسية بسلطانها الغلاب وحسب ، إنه يلمح فوق ذلك إلى صديق يسعدنى أن أذكر تأييده كلما أحسست عزلتى الفكرية . وصديقى هذا شأنه فى حياتى ، ألا يكون من المحتوم أن يتردد فى الحلم ذكره ؟ نعم ، إن له إلماما خاصا بعواقب أمراض الأنف وجيوبه . وهو قد كشف للعلم عن علاقات جديرة بأكبر الإعجاب بين خياشيم الأنف وعضو الإنسال عند الأنثى (الزوائد الثلاث المتجعدة فى حلق إرما) . ولقد جعلته يفحص إرما مرة ليرى هل كان لأوجاع المعدة عندها أصل أنفى . ولكنه نفسه يشكو التهابا صديديا فى الأنف يثير القلق فى نفسى ، وإلى هذا تومئ من غير شك الحمى الصديدية التى طاف ذكرها بخلدى فى صدد السروح المرضى المذكور فى الحلم .

إن الإنسان لا يقدم على مثل هذه الحقن بمثل هذه الخفة . هنا يوجه اللوم على الخفة إلى صديقى أوتو مباشرة . وأعتقد أن خاطرا من هذا القبيل قد طرأ لى بعد الظهر حين خيل إلى من كلماته ونظراته أن يتعصب علىّ ، كأنما قلت : ما أسهل التأثير فيه ! بأى خفة يرسل أحكامه ! — وفوق هذا ، تذكرنى هذه الحملة من جديد بصديقى المتوفى الذى التجأ إلى حقن الكوكايين من غير ترو ؛ فما فكرت على الإطلاق — كما قلت من قبل — فى أن يأخذ هذا الدواء حقنا . وألاحظ أيضا أننى إذ ألوم أوتو على نزقه فى استخدام المواد الكيميائية ألمس مرة أخرى قصة ماتيلدا التعسة ، وهى القصة التى تعرضنى لهذه المؤاخذة عينها . وجلى أننى أجمع هنا الشواهد على حساسية ضميرى ، ولكنى أجمعها أيضا على العكس .

وأغلب الظن أن المحقنة لم تكن نظيفة كذلك . ذلك لوم آخر يوجه إلى أوتو ، ولكنه

لوم مختلف المصدر. فقد اتفق أنى قابلت فى اليوم السابق ابن سيدة عجوز فى الثانية والثمانين من عمرها، كنت قد كلفت بحقنها حقنتين من المورفين كل يوم. وكانت السيدة تقيم فى الريف حين قابلت ابنها. فأخبرنى أنها تعانى التهابا وريديا. فخطر لى على الفور أن الأمر ربما كان ارتشاحا نجم عن محقنة قذرة. فقد كان من أسباب فخارى أنى لم أسبب لها ارتشاحا واحدا خلال سنتين. فنظافة المحقنة هى همى الدائم: إننى — وذلك هو بيت القصيد — ذو ضمير. وتعود بى الذاكرة من الالتهاب الوريدى إلى زوجى التى اشتكت مرة من انسداد وريدى أصابها فى إحدى فترات الحمل. وهنا تمثل فى ذاكرتى ثلاثة مواقف متماثلة مع زوجى وإرما وماتيلدا المتوفاة. وواضح أن تماثل هذه المواقف هو الذى خول لى فى الحلم تبديل هذه الوجوه الثلاثة فيما بينها.

* * *

الآن أكملت تفسير الحلم[1]. وكنت وأنا ماض فى هذا التفسير أجهد ما استطعت فى تجنب الأفكار التى لم يكن مفر من أن توحيها المقارنة بين محتوى الحلم والأفكار الكامنة وراءه. وفى هذه الأثناء أشرق فى ذهنى «معنى» الحلم. لقد لحظت أن ثمت مأربا وأن هذا المأرب قد صار فى الحلم شيئا واقعا، وهو هو الذى كان لا محالة دافعى إلى الحلم. فالحلم يحقق بضع رغبات أثارتها فى نفسى أحداث الأمسية السابقة: الأنباء المتلقاة من أوتو وتاريخ الحالة المرضية الذى دونته. وحاصل الحلم هو أننى برىء من شكاة إرما المستمرة؛ فإنما المذنب أوتو. والحقيقة هى أن أوتو قد أثار حفيظتى إذ أشار إشارته إلى شفاء إرما شفاء غير تام. والحلم يثأر لى إذ يرد اللوم إليه. ثم هو يعفينى من كل مسئولية فيما عليه إرما إذ يرد حالها إلى عوامل أخرى — وهو يتبدع هنا طائفة كاملة من التعليلات. الحلم — إذن — يصور وضعا من الأوضاع التصوير الذى أحب: إن محتواه يحقق رغبة والدافع إليه رغبة.

كل هذا يقتحم العين. ولكن تفاصيل الحلم كذلك يدنو الكثير منها للفهم إذا نحن نظرنا إليه من وجهة تحقيق الرغبة. فأنا لا أثأر من أوتو لتعجله فى التعصب على وحسب، راميا إياه بالتهور فى علاجه (الحقنة)، بل أثأر منه كذلك للشراب الردىء الذى يفوح منه زيت الفوزل، وأجد فى الحلم تعبيرا يوحد الملامتين: حقنة من مركب البروبيل.

(١) وإن كان من المفهوم أننى لم أرو كل ما خطر لى فى أثناء عملية التفسير.

ثم لا يكفيني ذلك ، فأمضي فى انتقامى ، فأفاضل بينه وبين منافس ثقة عنه ، كأنما أبتغى القول : إنه أحب إلىّ منك . ولست أصب جام غضبى على أوتو وحده ، بل أنتقم أيضا من مريضتى العاصية إذ أستبدل بها أخرى أعقل وأطوع . بل الدكتور م . نفسه لا أنسى له معارضته إياى ، بل أريه بإشارة لا تخفى أنه لا يفقه من الأمر شيئا (« سوف تعقب الدستاريا ... الخ . ») وإنه ليبدو لى أننى أتحول عنه إلى حكم آخر أوسع معرفة ، مثلما تحولت من قبل عن إرما إلى صديقتها وعن أوتو إلى ليوپولد . لكأنى أقول : أبعدوا عنى هؤلاء الثلاثة وآتونى بثلاثة أنتقيهم من غيرهم ، ترتفع عنى هذه الملامات التى لا أريدها مستحقة ! ثم هذه الملامات ذاتها لا يلبث أن يُساق البرهان فى الحلم على بطلانها ، مسببا كأكثر ما يكون الإسهاب : فآلام إرما لا تقع على ، بل هى الملومة ؛ لأنها ترفض حلى . ثم ما شأنى وآلام إرما وهى بطبيعة عضوية ، فلا يشفيها علاج نفسى ؟ ثم إن فى ترمل إرما التعليل الكافى لدائها (التريمتيلامين !) ، ولاحول لى على تغيير هذا الوضع . ثم إن علة إرما قد ولدتها حقنة من مادة غير مناسبة ، لم يأخذ أوتو فيها بالحذر — وهو أمر ما كان ليصدر عنى قط . ومرض إرما — مثل الالتهاب الوريدى الذى أصاب مريضتى العجوز — منشؤه حقنها بإبرة قذرة ، وأنا الذى ما أضرت حقنه أحدا قط . ولا يفوتنى بالطبع أن هذه التعليلات لمرض إرما لا تتفق فيما بينها وإن اتفقت على تبرئتى ، بل إن كلا منها يمنع غيره . فالدفاع كله — فما هذا الحلم إلا دفاع — يُذكر برجل اتهمه جاره بأنه اقترض منه قدْرا ثم أعادها بعد أن أفسدها . فأجاب الرجل بأنه قد أعاد القدر على خير حال — هذا أولا — ثم إن القدر — ثانيا — كانت مثقوبة حين استعارها ، ثم هو — أخيرا — لم يستعر شيئا على الإطلاق . والنفع فى الإكثار : فلو لم تجز من حجج الرجل إلا واحدة ، لكفى ذلك أن يُخلى سبيله .

وفى الحلم فكر أخرى تشارك فى بنائه دون أن تكون لها مثل هذه الصلة الواضحة برغبتى فى أن أُبرَّأ من مرض إرما : مرض ابنتى ومرض سميتها ، الأذى الذى جره الكوكايين ، إصابة مريضى المسافر بمصر ، قلقى على صحة زوجى وأخى وصحة الدكتور م . شكاياتى نفسى ، قلقى على صديقى الغائب وهو يعانى الالتهاب الصديدى الأنفى . ولكنى إذا نظرت إلى كل أولئك رأيته يجتمع فى دائرة فكرية واحدة عنوانها : القلق على الصحة ، لنفسى ولغيرى ، الضمير المهنى . وإنى لأذكر إحساساً أليماً غامضاً خالجنى حين أتانى أوتو بأنبائه

عن إرما ، وفى مقدورى الآن — وقد سفرت هذه الطائفة من الأفكار التى كان لها فى الحلم نصيبها — أن أرجع إلى هذا الإحساس العابر فأثبته فى كلم ، إنى كنت كأنما أسمعه يقول لى : أنت لا تأخذ تبعاتك الطبية مأخذ الجد ، أنت لا ضمير لك ، أنت لا تنجز ما تعد . وكان أن واتتنى هذه الطائفة من الأفكار لكى أتمكن بها من تبيان أى ضمير مرهف هو ضميرى ، وكم أحرص على صحة ذوى وصحة أصدقائى ومرضاى . وحرى بالملاحظة أن هذه المادة قد حوت كذلك أفكارا تؤيد اتهام صديقى أوتو أكثر مما تبرئنى ، إنها مادة محايدة — إن جاز التعبير . ولكن هناك مع ذلك رباطا لا يخفى بين هذه المادة الأوسع نطاقا والتى ينهض عليها الحلم وبين الموضوع الأضيق الذى يعالجه هذا الحلم والذى نشأت عنه الرغبة فى البراءة من كل ذنب فى مرض إرما .

ولست أريد أن أقول : إنى كشفت معنى هذا الحلم كشفا كاملا أو إن تفسيره يخلو من الثغرات .

لقد كان يسعنى أن أفرغ له مزيدا من الوقت وأن أخرج منه بمزيد من العلم وأن أناقش فى صدده مشكلات جديدة ما زال يثيرها . وأنا نفسى أعلم ما هى المواضع التى ينبغى تتبع المستدعيات الفكرية الجديدة ابتداء منها . ولكن توقفنى دون مواصلة التفسير اعتبارات تظهر فى صدد كل حلم . فإن أحس البعض بنفسه مسارعة إلى استنكار مثل هذا التحفظ منى ، كفاه أن يحاول غلبتى فى الصراحة . فأما أنا فأقنع فى الوقت الحاضر بتلك المعرفة المفردة الجديدة : إذا سرنا على منهج تفسير الحلم المبين فى هذه الصفحات ، رأينا أن الحلم له فى الحقيقة معنى وأنه بعيد غاية البعد عن أن يكون مظهرا لنشاط مخى متجزئ ، كما يريد المؤلفون : إذا تم التفسير تبين أن الحلم تحقيق رغبة[1] .

---

(١) [فى خطاب إلى فليس بتاريخ ١٢ من يونيه ١٩٠٠ يتحدث فرويد عن حياة الأسرة فى بلتى ثم يردف قائلا :

« أتظن أن لوحا من المرمر سوف يعلق يوما على هذا المنزل وقد نقشت عليه تلك الكلمات ؟ —

فى هذا المنزل ، فى ٢٤ من يوليه ، ١٨٩٥

كشف سر الأحلام

للدكتور سيجموند فرويد

إن الأمل فى ذلك يلوح ضعيفاً فى الوقت الحاضر . »]